الفصل الثالث

النفس الإنسانية

بين التصور الفلسفى وآفاق الرؤية الأدبية التأملية

تمهيد :

وبعد بيان موقف المهجريين من الوجود ، وتأملهم فى مظاهره وأسراره يأتى مظهر آخر من مظاهر التأمل عندهم . ويعد من أهم مظاهر التأمل عندهم ذلك المظهر هو " النفس الإنسانية "

وقد أتيت به بعد الوجود لأن الحديث عن النفس لا ينفصل عن الوجود فالنفس إحدى مسلمات الوجود. ولذلك ربما يتشابه الحديث عن النفس مع الحديث عن الوجود فى بعض المواقف .

فجبران يعتد بنفسه ويرى أنها بؤرة الوجود . فكل ما فى الوجود فى نفسه وحين يتكلم عن خلود الوجود يمنى نفسه كذلك بالخلود .. وقريب من هذا الموقف . موقف أبى ماضى فى قصيدته " المجنون " حيث يتخيل أن الوجود فى قبضته ويهزأ بكل مميزات الوجود الأكبر ويقول فى عصبية وهو يعتقد أنه كل شىء فى الوجود وأن بداخل ذاته المحدودة ينطوى العالم .

فصـــاح الصـــوت مـــا أرجـــوه ... فـــى نفســـى ومـــا أحـــذَرْ
فـمـهـمـــا رحـــب الأفُـــقُ ... فنفسـى الأفســـق الأكـــبرْ (١)

ولم يغب عن وعى المهجريين ما يدور بنفوسهم من صراع وإحساس بمرارة الواقع والطموح الى الانعتاق من قيود المادة . كذلك تساءلوا عن طبيعة النفس وما هيتها هل هى فى الروح أم الجسد ؟ أم العقل ؟ أم القلب ؟ أم أن هذه القوى جميعا تمثل مانسميه بالنفس .. وما كيفية هذه الطبيعة ؟

هل النفس غارقة إلى أذنيها فى الشر ؟ أم أن بنورالخير مضيئة فى أعماقها ؟ أم أن الخير والشر يتعانقان فى داخلهما ؟ كما يعتقد نعيمه .

---

(١) أبو ماضى . الجداول ص ٥٤ .

كل هذه مشاعر طافت بداخل المهجريين وهم يواجهون النفس ويهربون من واقعهم إلى معالجة مشاكل النفس ، واستبطان أسرارها .

واذا تساءلنا عن سبب اهتمام المهجريين بالنفس نجد الإجابة العلمية فى ضوء حقائق علم النفس تقول بأن " هناك تفاعلا وتجاوبا بين الشاعر والعالم النفسانى فمن المعروف أن فرويد " قد أفاد كثيرا من شكسبير فى تفسيره لشخصية " هاملت " وهو التفاعل الذى لابد منه بين تيارات الحياة المختلفة فينتج عنه تأثر وتأثير بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، واضحة أو خفية ، وربما كانت جميع هذه التيارات تنبع من أصل واحد أو على الأقل تسير في خطوط متوازية . والشطر الماضى من القرن العشرين شاهد على ذلك . فبرجسون فى الفلسفة ودوركيم فى الاجتماع ، وفرويد فى علم النفس وبروست فى الأدب كل أولئك كانوا مظاهر مختلفة لظاهرة واحدة هى روح العصر فليس غريبا على طبائع الأشياء أن يفيد علم النفس ممثلا فى فرويد من الشعر ممثلا فى شكسبير ، أو من القصة ممثلة فى دستويفسكى أو بروست أو من على شاكلتهما إذ أن الهدف فى كلتا الحالتين مشترك ، وهو كشف أكبر قدر ممكن من جوانب الحياة الإنسانية . (١)

ولهذا رأينا المهجريين يهتمون بالبحث الشعرى عن حقيقة النفس ويمنونها بالخلود ونلاحظ أن التأمل فى النفس الإنسانية من مميزات أدباء الرابطة القلمية أما شعراء الجنوب فلم نعثر علي مثل هذا التأمل إلا فى شعر فوزى المعلوف حيث اشتملت مطولتاه على قضايا ذاتية نفسية تعانى من صراع بين عالم المادة وعالم الواقع وفى مطولة شفيق المعلوف " عبقر " دارت أحاديث عن النفس والجسد وبواعث اللذة والألم " غير أن شعر المهجر بصورة عامة قد شغل بالعلاقات الحية المباشرة بين الفرد والمجتمع . فلم يوجد فيه كثيرا الإحساس بانعزالية الفرد عن المجتمع وبذاتية عالمه وإنغلاقه على نفسه بل وجد فيه الإحساس بالفرد الإنسانى كوحدة من وحدات المجتمع تتفاعل معه وتنفعل باهتماماته . وتنشغل بقضاياه . (٢)

وفى دراسة موقف المهجريين من النفس سأتبع المنهج الآتى :

أ - التطلع إلى الانعتاق من أسوار الواقع المادى

ب - طبيعة النفس الإنسانية وما هيتها .

(١) د / عز الدين اسماعيل . التفسير للأدب ص ٢١ - ٢٢ .
(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٣٢ .

جـ – الصراع بين قوى النفس المختلفة .

مع الحرص على بيان أوجه التوافق والاختلاف بينهما ومظاهر التأثير والتأثر .

والبحث فى النفس موضوع قديم طرقه الأدباء والفلاسفة . والمتصوفون . وبحثوا فى حقيقتها وعنفوها وواجهوها بكل عنف . ؟

ومن المهم أن أذكر هنا مراحل المباحث العلمية النفسية والفلسفية وهى على الترتيب ثلاث مراحل .

أ – مرحله الأيديالزم :

أو " طور البحث المثالى " الذى بدأه وأعلى بناءه أفلاطون .

ب – مرحلة " الريالزم :

أو طور البحث الواقعى أى البحث فى الواقع المشاهد الذى وضع أساسه أرسطو ، ونحا نحوه من أتى بعده من الفلاسفة ثم ضعف أمره حينا من الدهر ، ثم بعث مرة أخرى على أيدى الفلاسفة المسلمين .

وظل شغل الفلاسفة والمفكرين الشاغل حتى جاء العصر الحديث . فبدأت المرحلة الثالثة الأخيرة وهى .

جـ – اليوتيليترياتزم :

أى المذهب النفعى أو البرجماتزم أى المذهب العلمى الذى رفع لواءه فى أمريكا " وليم جيمز " العالم النفسانى المشهور ، وجون ديوى – الفيلسوف المربى الذائع الصيت .

ويتلخص هذا المذهب فى :

أنه لا يعنينا معرفة حقيقة الشىء ، ولا الإلمام بوظائفه وإنما تعنينا معرفة طرائق الانتفاع به .

ولقد سلكت المباحث النفسية هذا المسلك نفسه . فقد كان القدماء يُعْنَوْن بمعرفة حقيقة النفس وإدراك منشئها ومصيرها .

وجاء أرسطو فاتجه بفكره الثاقب إلى معرفة وظائف النفس وقواها وملكاتها واستعداداتها كالاحساس والتخيل والتذكر والتفكير وظل الفلاسفة من بعده ينهجون منهجه مع تغيير قليل أو كثير حتى جاء العصر الحديث فبذل علماء النفس جهودا متواصلة فى معرفة طرق استخدام الوظائف فى نواحى الحياة الإنسانية . (١)

وجدير بالذكر هنا أن بحث المهجريين فى النفس لم يكن بحث الفلاسفة أو العلماء النفسانين ، وانما هو بحث يدفعه الانفعال وتقوده العاطفة ويقننه الشعور .

ولذلك ظلوا فى بحثهم فى دائرة الطور المثالى " الأيديالزم " الذى بدأه أفلاطون ، ودائرة البحث " الواقعى " الريالزم " الذى بدأ به أرسطو وأحياه الفلاسفة المسلمون .

وستتضح هذه الحقيقة عندما نقف على حقيقة موقفهم من " النفس " ، وتشكله المحاور الآتية

أ - التطلع إلى الانعتاق من أسوار الواقع المادى :

تعمق فى نفوسهم هذا الإحساس واشتاقوا إلى الهروب لعالم آخر كالغاب ، أو ما وراء الطبيعة نتيجة لاصطدامهم بمتناقضات الحياة وعدم التكيف مع مثالبها ولنظرتهم المثالية البعيدة عن الواقع .

فجبران قد شعر بالغربة النفسية وعاش فى عذاب كبير يعانى من عذابات أشواقه للمجهول المحجوب عن خياله . وتمثل هذا الإحساس فى قصيدته " البلاد المحجوبة " إحساس بالغربة وانصراف عن الواقع المرير . ويحاول أن يجد الطريق الأمثل ليصل إلى عالمه المنشود . هذا العالم سراب أم أمل ؟ أمنام يتهادى فى القلوب أم غيوم طفن فى شمس الغروب .

ويقول ناقد " إذا كان جبران فى المواكب قد وجد أمنه النفسى ووحدته الروحية فى أكناف الطبيعة ، ورأى الغاب مثوى للحياة الناعمة بمسرات العدالة والحرية والمساواة وإذا كان فى كثير من نثره قد ألح على هذه الفكره ، وقد هجا المدينة هجاء مرا لاذعا فإنه فى البلاد المحجوبة لا يبحث عن عالمه الذى أمضه الحنين إليه خارج ذاته لأنه يجده أخيرا أمنية تشتعل بها الروح وينبض بها الوجدان ، وستظل كذلك بومضها ونبضها ، وسيظل الكائن البشرى متحرقا إلى مرفأ مجهول ليس من سبيل للوصول إليه (٢) وليس صحيحا أن جبران قد وجد أمنه

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ص ٠ - ١١ .

(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ١٨٢ .

النفسى فى المواكب فقد كانت حلبة لصراعه النفسى بين واقعه وبين مثاليته حيث تفاقم الصراع فى نهاية القصيدة وأحسسنا بإرهاق الشاعر بعد هذه المناظرة الحادة بين واقعه ومثاليته . فقد أحس الشاعر رغم كرهه للمدينة أنها لا تزال تشده وتضغط عليه بما تحمل من مغريات وفى النهاية ينتصر الشر فى نفسه على الخير وهو كاره لذلك الانتصار الذى تتمثل فيه كل آلامه ويتأمل النص ندرك هذه الحقيقة التى أغفلها الناقد .

لكـــن هـو الدهـر فـــى نفسـى لـــه أرب فكلمـا رمـت غـابـــا راح يعتـــــذر

وأحيانا نرى جبران .. يفكر فى الموت ليهرب من عالمه النفسى الرهيب فالموت فى تصوره هو الحل الأمثل لكل مشكلات وجوده :

شاخـــت الـــروح بجسمـــى وغـــدت لا تـــرى غيـــر خيـــالات السنـــينْ
فاذا الأميـــال فـــى صـــدرى مشـــت فبعكـــاز اصطبـــارى تستعـــــينْ
والتـــوت منـــى الأمانـــى وانحنـــت قبـــل أن أبلـــغ حـــد الأربعـــــينْ
تـــلك حالـــى : فـاذا قـالـت رحيـــل ماعسـى حـل بـه قـولـوا الجنـــونْ
وإذا قـــالـــت أيشـفـــى ويـــزول مابـــه قـــولـــوا ستشفيـه المنـون (١)

والفكرة القائلة بأن الموت مخلص أو شاف ترجع إلى الفلسفة اليونانية وراندها سقراط فهو قد قابل حكم الإعدام هاشا باشا غير هياب ولا وجل مما يدل على إيمانه بأن هناك حياة أخرى تتخلص فيها النفس من سجن الجسد وقضبانه المادية وقال لاثنين من اتباعه وهما . سيحاس ، وشيبس حين سألاه فى اليوم الذى كان ينتظر نفاذ الحكم فيه أن يفسر لهما سلوكه عندما رفض الفرار من سجنه بعد أن هيئت له جميع أسبابه .

فقال سقراط " نعم إنى أعترف أنه لولا اعتقادى أنى سوف أذهب أولا صوب آلهة أخرى حليمة ورحيمة ثم بعد ذلك نحو رجال ماتوا هم خير من رجال هذه الحياة الدنيا . لكان من الخطأ الفاحش أن لا تثور نفس ضد الموت ، وحينئذ فلا وجود لنفس الأسباب التى تدعونى إلى الثورة فى هذه الظروف ، ولكنى على العكس من ذلك كبير الأمل فى أن هناك شيئا من وراء الموت . (٢)

(١) جبران : البدائع والطرائف : بالأمس : ص ١١٠
(٢) د / محمود قاسم دراسات فى النفس والعقل ص ٢٩ – ٣٠ .

وأحيانا يهرب جبران من نفسه إلى عالمه المنشود الذى يرمز له بالليل ويقول :

" عندما ملت نفسى البشر ، وتعبت أجفانى من النظرإلى وجه النهار سرت إلى تلك الحقول حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة . هنالك وقفت أمام كائن أقتم مرتعش . سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية ". (١)

واهتم نعيمه نتيجة لتأملاته الطويلة فى الحياة والطبيعة بالروح قبل الجسد وبالخالد قبل الفانى ، وبالجوهر الأزلى قبل العرض الترابى . وبذات الإنسان التى لا تموت قبل ذاته الفانية . . فوجه إلى هذه الناحية كل عنايته وركز فيها خلاصة أدبه وخلاصة عقيدته وإيمانه المطلق .

وموقف نعيمه موقف ميتافيزيقى بعيد عن الواقع بمعنى أنه لم يواجه نفسه وحقيقتها العارية ولم يضع ذاته على طاولة : التشريح . ليفند عيوبها ، كما فعل جبران فى بعض المواقف وعنده أن النفس لا تتعدد وإنما هى نفس واحدة يلتقى الكل فى دائرتها وذلك نابع من إيمانه بوحدة الوجود ومن هذا المنطلق تتكون آراء نعيمه فى النفس ويبدأ رحلته لمعرفة أسرارها قائلا : ليس هناك أنا وأنت وهو . فأنا كل إنسان وكل إنسان هو أنا فإذا أحببت إنسانا أحببت نفسى وإذا أسأت إلى إنسان أسأت إلى نفسى . (٢)

ونتيجة لإحساسه بأنه غيره ، وغيره هو . ولا فاصل بينهما يصف من يؤمنون باستقلال النفوس وحتمية الفواصل بأنهم واهمون وعقيدتهم وهم خطير ويقيم دليلا على ذلك يقتطعه من جذور الحياة فيقول " إن الوهم الذى تتفرع منه كل أوهام الإنسان هو اعتقاده أن له ذاتا منفصلة عن كل ذات وحياة مستقلة عن كل حياة وإذا سأل الإنسان نفسه . من أنا ؟ لما تمكن من إقامة حد بينه وبين شىء . أو لستم ترون أنكم إذا شربتم قطرة من الماء فكأنكم شربتم البحار كلها ؟ لأن لكل قطرة فى كل بحر صلة بالقطرة التى تشربون .(٣)

وفى الحقيقة أن فكرة فناء النفس الذاتية فى الوجود الكلى من أصل هندى ولعل مثلها الأول فى الفلسفة الإسلامية أبو يزيد البسطامى . الصوفى الفارسى قد تلقاها عن شيخه أبى على السندى .

---

(١) محمد عبد المجيدفى عالم الأدب ص ٣٩ .

(٢) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٥٢ .

(٣) السابق ص ٦٣ .

ومن بعض أقواله " غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبتى عنه ذكرى إياه فلما خنست عنه وجدته فى كل حال حتى كأنه أنا " .

ويقول : ثم تنقلت من إله إلى إله حتى نادوا منى فى " أنت أنا " وهذه كما ترى ليست البوذية . وإنما هى حلولية " القيدنتا " (١)

ونعيمه حين يترجم الفلسفات الشرقية القديمة ويحيلها إلى شعور نابض بالحياة فهو بذلك يبحث عن خلاصه النفسى ويجد فى الانصراف عن العالم المرئى فى محاولة لاستبطان ذاته والاستماع إلى ما يساورها من أشجان .

يقول من قصيدته " لوتدرك الأشواك (٢) مؤكدا توحد نفسه وتفردها بأنغامها :

يا مرسل الألحان من عوده ... سحرا يهيج الصب حتى الجنون
إما رأيت الرأس منى انحنى ... والعين غابت خلف ستر الجفون

فلا تقل ذى حال ولهان

لا لست بالولهان ياصاحبى ... فالقلب منى جامد كالجليد
لكننى مصغ لنفسى ففى ... نفسى أوتار وفيها نشيد

فاضرب ودعنى بين ألحانى

ومثلما صنع نعيمه لنفسه عالما ذاتيا غير العالم المرئى اختار « نسيب » أن يناى بنفسه عن عالم الواقع . وصنع لنفسه عالما ذاتيا مبتعدا عن الناس ويختلف هروب نسيب عن هروب نعيمه – ويشبه إلى حد كبير هروب جبران فابتعاد نسيب عن عالم الناس كان عزوفا عن هذا العالم المتبذل ريبة منه فى أخلاقه وعاداته . ولقد تجسدت هذه العزلة عن الناس أمام غيبة قواه النفسية " وتمثل . النفس والجسم والقلب والعقل " قوى متصارعة زاد فى صراعها مزاجه المرتبط بالكآبة والتشاؤم فكان تصويره للصراع بين قوى نفسه المتعددة أشبه بتصوير عراك بين مجموعة من البشر واتخذ خطابه لنفسه أو لقلبه أسلوب الزجر والتعنيف كما فى أسلوب المتصوفة المسلمين وزجرهم للنفس الأمارة بالسوء . (٣) وهذا الموقف من النفس عند نسيب عريضه مخالف لموقف جبران الذى أعطى لنفسه قيمتها وجعلها معلما وواعظا وشعلة مضيئة

(١) أ رنيكلسون : الصوفية فى الإسلام ص ٢٣
(٢) م . نعيمه همس الجفون ص ٣٠ .
(٣) د . أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٣٠٨ .

تغذى فكره وروحه .

ويرى .. نعيمه أنها مصدرالمعرفة لكل مافى الوجود .. أما نسيب عريضة فنحن نحس أن النفس راجفة ترتعد أمام هذا الاستحثاث الصارم :

لـــــاذا وقفـــت بخـــوف وحيره ؟
أيا نفـــس عـــند الطـــريق العسيرة
ألا امـــشى .. فـــان الحيـاة قصيرة

وحاول رشيد أيوب أن يهرب من واقعه فكان هربه رومانسيا بعيدا عن التفلسف فهو قد شاد من الأحلام قصوره المبتغاة ورأى فيها خلاصه المنشود يقول من قصيدته : جزيرة النسيان :

ورحـــت فـــى الحلـــم قـصـــرى ... فـــوق النجـــوم مُـشَيَّـــدْ
والمـــرء لـــولا الأمـــانـــى ... تـــمـــوت فيـــه وتـولـــد
لمـــا رأيـــت عـليـــها ... إلا الـحـزيـــن المنكَّـــدْ (١)

ويقول من قصيدة " قصرى " :

قصـــرى بنـــاه الوحى رحب المجـال ... فـى القبـة الزرقـاء منـذ الوجـود
فأرقصـن فيـه يابنـات الخيـال ... ياحبـذا منكـن هـز القـدود
وامرحـن فـى ساحات ذاك الجمـال ... والبسـن مـن تـلك الـدرارى عقـود
تلـوح فـى وهـم الليالـى الطـوال ... علامـة للنفـس فـى زهـدها (٢)

وربما رمز إلى نفسه " بهند " وخاطبها قائلا :

يا هنـد قـد فسـد الزمـا ... ن وراج قـول المرجـف
فهلـم نذهـب فـى الظـلا ... م الـى الجبـال ونختفـى

هـــل تذهبـــين

(١) أغانى الدرويش ص ٣٠ .
(٢) السابق ص ٨ .

وهنـــــاك نســـــرح مثلمـــــا الاطـــيار تســـرح فـــى الـــفضا

مـــتوكلين علـــــى المقـــــا در صـابـــريـــن علـــى القضـــا

كـــــالزاهـــــدين(١)

وكان رشيد أعمق من سائر رفاقه إحساسا بأنه هارب وأكثرهم حديثا عن اللذة التى يجد لها فى عزلته وهربه ، وأكثرهم إلحاحا على المعانى المتصلة بهذه العزلة وذلك الهرب ، فهو الدرويش المغترب الذى يرعى النجم ويخفق قلبه للبرق ويبكى لصوت الناى ، وهو صاحب القصر الخيالى البعيد الذى سينقذه من همومه ، والخمر دائما حاضرة مهيأة فى دنياه وجزيرة النسيان فردوسه الجميل لا يغيب عنها إلا إذا اختفى فى ذكريات الطفولة وربوع الوطن . أو فى جبال نائية أو ألقى عصاه عند خيمة الناطور (٢)

ورشيد أيوب لا يلوم النفس على هذا الهروب إلى عالم الأحلام والتسلى به ولكنه يعدها رشيدة ، ولائمه على سهده ونواحه وهو الضال عن الحقيقة :

فـــان رأيـــت الدمـــع منـــى يسيـــل فـــذا بشـــرع الحـب عـــين الصـــلاح
أو قلـــت قصـــرى ماعليـــه دليـــل أقصـــر وخـــل النفـــس فى رشـدهـا

وقد يتردد بعضهم بين الهروب بنفسه عن العالم المادى ، وبين الاقبال عليه ومحاولة تجميله ، مثل أبى ماضى الذى يهدهد نفسه ويسير بها فى طريق خال من الدموع والكآبة . ويمنيها بالحياة فهى نفس اجتماعية . يقترب بها من المرحلة الثالثة فى البحوث النفسية وهى " اليوتيليترياتزم " أى المذهب النفعى أو البراجماتزم أى المذهب العملى الذى رفع لواءه فى " أميركا " وليم جميز . وجون ديوى . لكن جبران يبحث عن ماهيتها فهى نفس فلسفية ، ونعيمه ونسيب يعنفانها فهى عندهم مرتبطة بالشيطان ولذلك عداها سجنا للروح . وتكاد النفس عندهما تراد ف الجسد .

(١) رشيد أيوب : هى الدنيا ص ٤٣

(٢) الشعر العربى فى المهجر ص ٢٣٠ د / إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

يقول أبو ماضى مخاطبا نفسه :

يـانفـس هـذا مـنـزل الأحـبـاب فـانسى عـذابك فـى الـنوى وعـذابى
ولتمسـح الـبشرى دمـوعك مثلمـا يمـحو الصـباح نـدى عـن الاعـشاب

وقد يبدو الموقف غريبا من أبى ماضى فالتفاؤل يكون غالبا فى عهد الشباب ويتطور الأمر إلى النهاية المأساوية عندما يحس المرء بدنو الأجل . فالموت النهاية المسيطرة دائما . لكن أبا ماضى يدور فى حلقة لا تعرف لها بداية ولا نهاية لكن قطر دائرته مغلف بالتفاؤل . وقد قال هذه الأبيات فى ديوانه الأخير " تبر وتراب " ويتابع تفاؤله ويقارن بين ماضيه وحاضره فيقول من قصيدته " الرأى الصواب " (١)

قـد كنت مثل الطائر المحبوس فى قفص ، ومثل النجم خلف ضباب
يمتد فى جنح الظلام تأوهى ويطول فى أذن الزمان عتابى
وأهز أقلامى فترشح حدة وأسى وينـدى بالدموع كتابى
حتى لقيتكم فبت كأننى لمسرتى استرجعت عصر شبابى

ويعلن أبو ماضى ثورته على الهروب ويدعو إلى إصلاح العالم والتعاطف مع المعذبين ويثور على حياة الغاب " برغم أن جبران طالما حنَّ إليها ، فالغاب يتخذه الشاعر رمزا للسيطرة والقوة فيقول :

قد ترقى الخلق لكن لم تزل شرعه الغابة شرع الأقوياء (٢)

والقفر الذى تخيل الشاعر قديما أنه يعيش فيه وأنشأ قصيدته "فى القفر" وقال :

خلست أنى فى القفر أصبحت وحدى فإذا النـاس كلهم فى ثيابى

نرى الشاعر يثور على القفر أيضا ويشارك الناس آلامهم بنفس كريمة سمحاء يقول :

---

(١)تبر وتراب : أبو ماضى ص ١٠٦
(٢) السابق ص ٩١ .

ليس التعبد عزلة وتنسكا ... في الدير أو في القفر أو في الغاب
لكنه ضبط الهوى في عالم ... فيه الغواية جمة الأسباب

وينادى بإعطاء النفس حقها من الحياة والبعد بها عن العزلة كذلك يحب النفوس المعطاء التى لا تبخل بقدراتها ومامكلت يداها على الغير فيقول فى أسلوب يجمع بين الكناية والاستعارة والتشبيه الضمنى . وكانت هذه طريقة أبى ماضى فى تصويره خواطره وتوصيل أفكاره يقول :

كن وردة طيبها حتى لسارقها ... لا دمنة خبثها حتى لساقيها
ان كانت النفس لاتبدو محاسنها ... في اليسر صار غناها من مخازيها
السجن للماء يؤذيه ويفسده ... والسجن للنفس يؤذيها ويضنيها
فما تعكر إلا وهو منحبس ... والنفس كالماء تحكيه وتحكيها (١)

- ٢ -

طبيعة النفس وماهيتها :

وبهر المهجريون بأفكار الفلاسفة فى موضوع النفس وحقيقتها فترجموا هذه الأفكار شعرا . واستطاعوا أن ينتصروا على جفاف الفكر الفلسفى المجرد بأنفاسهم الشعرية الحارة . فبحثوا عن حقيقة النفس وطبيعتها . وهذه مرحلة " الأيديالزم " أو طور البحث المثالى الذى بدأه وأعلى بناءه أفلاطون .

فجبران كما قلت سابقا : عقيدته الأساسية وحدانية الوجود . وبدافع من هذه العقيدة اعتد بذاته وبنفسه أو تصور أنها تنطوى على الوجود كله . فإذا ما أضنى الإنسان التفكير فى الأشياء من حوله ، وإذا ما هربت حقيقته من كل المسميات التى تجود بها تجربته فى الحياة فما عليه لكى يستريح إلا أن يسلم بأن الوجود صورة منه بل إنه هو الوجود بعينه . (٢)

ويتطور موقف جبران من الاعتداد بذاته إلى أن يراها مصدر كل معرفة فى الوجود وفي

---

(١) السابق ص ٦١
(٢) د أنس داود / التجديد فى شعر المهجر ص ١٩١ .

مقالة له بعنوان " النفس " يقول :

النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير أوجه الآلهة ،النفس كالزهرة تضم أوراقها أمام الظلمة ، ولا تعطى أنفاسها لخيالات الليل . (١)

وهو فى قصيدته " الجبار الرئبال " يعطى لنفسه أنها تتقمص ظل القدر والحب والموت المريع ، ثم المجد ثم السر الذى يتهاوى بين روح وبدن . ثم فى النهاية تعلن النفس عن ذاتها هى فقط ولا غيرها الكامنة فى الطيف الهائل . يقول بعد الحوار الذى دار بينه وبين ذلك الطيف .

قـــال محجوبـــا انـــا أنـــت فـــلا تسألـــين الأرض عـــنى والسمـــــا

فـــاذا ماشئـــت ان تـــعرفـنـــى فـــارقب المـــرآة صـــبحا ومـــسا (٢)

وهو فى هذه القصيدة يمزج عقله بعاطفته وتسيطر عليه النزعة العقلية فى تفكيره فهو يصنف أولا ذلك الطيف . وكأنه يمهد لنا حتى تهيىء أنفسنا للحوار القادم ويجادل الطيف حين يسأله عن حقيقته .. ثم يقيم الحجة عليه فى تسلسل منطقى حتى عجز الطيف عن مجادلته.. فاختفى عنه وقال "أنا أنت ".

والنفس عنده معلم كبير ومصدر للمعرفة الكونية كما وضحت ، وهو يجعل منها واعظا يعلمه مالا يعلم الناس ، ويبين به ما يخفى على الناس . يقول فى مقالته " وعظتنى نفسى " .

وعظتنى نفسى فعلمتنى حب ما يمقته الناس . ومصافاة مايبغضونه وأبانت لى أن الحب ليس بميزة فى المحب بل فى المحبوب .

وعظتنى نفسى فعلمتنى أن أرى الجمال المحبوب بالشكل واللون والبشرة وأن أحدق متبصرا بما يعده الناس شفاعة حتى يبدو لى حسنا .

وعظتنى نفسى: فعلمتنى الإصغاء إلى الأصوات التى لا تولدها الألسنة ولا تضج بها الحناجر .

وعظتنى نفسى: فعلمتنى أن أشرب مما لا يعصر ولا يسكب بكؤوس لا ترفع بالأيدى ولا تلمس بالشفاه. (٣)

---

(١) محمد عبد المجيد : فى عالم الأدب

(٢) جبران : البدائع والطرائف ص ١٠٧

(٣) [illegible] مقالة النفس (٢٤ ـ ٢٧)

ويستمر جبران فى عرضه الشعرى المشبوب المقدر لقيمة نفسه وكيف أنها حولته من الالتصاق بالأرض إلى اختراق الحجب ، ومن القناعة بالعرض إلى التنقيب عن الجوهر المكنون فى أصداف الحقيقة ، فقد علمته أن فى الهنيهة الحاضرة كل الزمن بكل ما فى الزمن مما يرجى وينجز ويحقق ، وعلمته أن مكانا حل فيه هو كل مكان ، وآن فسحة شغلها هى كل المسافات ونفسه إذا كانت علي هذه الشاكلة فالخلود مصيرها .

وهذه النفس التى ينشدها جبران لها صلة بالنفس التى أجلها الفلاسفة وهى المزودة بالحدس . وهو كما يقول الغزالى مفتاح أكثر العلوم .

ويقول عنه ابن سينا " هو ضرب من النبوه ، أو قوة قدسية ، وهى أعلى مراتب القوى الإنسانية .

وهذه المرتبة القدسية هى كمال النفس الخاص لأنها تصبح به عالما عقليا موازيا للعالم الموجود . مشاهدة لما هو الحسن المطلق ، والخير المطلق ، والجمال الحق وكلما ازداد الناظر فى المسائل استبصارا ازداد للسعادة استعدادا فكأن الإنسان لا يتبرأ من هذا العالم وعلائقه إلا إذا أكد العلاقة مع ذلك العالم . فصار له شوق إلى ماهناك ، وعشق لما هناك . يصده عن الالتفات . (١) إلى ما خلفه .

وفى مقالته " نفسى مثقلة بأثمارها " يوضح هدفه فى إعطائه للنفس قيمة كبرى ويعتمد فى تجسيم فكرته على الاستفهام الذى يوحى بأشواقه الحرى للعطاء . ثم التمنى والوصف ، كل هذا يغلفه إحساس عميق مرتكز على محبة الوجود بأسره .

وكثيرا ما يخص جبران النفس بالمقالات المنفردة العديدة والقصائد أيضا وقصيدته " يانفس " تؤكد معتقده فى خلود النفس ... وقضية خلود النفس وحدوثها اختلف فيها الفلاسفة فهى عند أفلاطون قديمة وهى قد وجدت قبل وجود الجسد وهى شقيقة المثل هبطت على كره إلى العالم المحسوس . واتصلت بالجسد فهى إذن صورة من صور الملأ الأعلى .

ويرى ابن سينا وأرسطو والفارابى أنها حادثة وليست قديمة والنفس عند ابن سينا صورة الجسد . وقال :

---

(١) جميل صليا: من أفلاطون الى ابن سينا ص ١١٩

انمـــا النفـــس كالزجاجـــة والعلـــــم ســـراج وحكمـــة اللـــه زيـــت
فـــاذا أشـــرقـــت فإنـــك حـــى وإذا أظلمـــت فـــإنـــك ميـــت

وجبران يندمج فى الطبيعة ليأخذ منها القياس المنطقى حتى يقيم الدليل على دعواه فيقول :

يا نـفـــس إن قـــال الجهـــول الـــروح كالجســـم تـــزول

ومـــا يـــزول لا يعـــود

قـــولـــى لـــه ان الزهـــور تمضـــى ولكـــنَّ البـــذورْ

تبقـــى وذاكـــرة الخلـــود

ويقع جبران فى عيب الاستطراد النثرى والمقابلة المنطقية التى تنأى بشعره أحيانا عن الايحاء المكثف فهو عندما يقول " الروح كالجسم تزول " يأسره شكل القصيدة فيضطر الى أن يحكى ما هو معروف فيقول : وما يزول لايعود .

وجبران فى فهمه لطبيعة النفس لا يحدد لها طبيعة فلسفية كما هو الشأن عند فلاسفة الإغريق والإسلام والمسيحية ولكنه يخلط أحيانا بين النفس والروح وهما فى الغالب عنده بمعنى واحد .

* *

ويشتاق نعيمه إلى معرفة نفسه . ويتساءل عن طبيعتها وما هيتها وفى ديوانه " همس الجفون " قصيدة طويلة عنوانها " من أنت يانفس (١) تبلغ خمسة وثلاثين بيتا .. وهى تنهج نهجا تعبيريا متميزا . وهو أسلوب الشرط والجواب .

يصف فى الشرط مظاهر الطبيعة كالبحر والرعد والبرق والريح والفجر والشمس والبلبل

(١) أنظر القصيدة كاملة بديوان همس الجفون من ١٦ – ٢١ .

الصداح . ثم يفسر فى الجواب مدى تأثير الطبيعة فى النفس ويحتار وتبدو هذه الحيرة فى تساؤلاته التى تغلفها الدهشة لأن النفس تلتحم التحام العاشق بكل مظهر من المظاهر السابقة .

فعندما يراها تناجى البحر فى أحواله كلها باكيا أو طاغيا أو ثائرا يحسبها عنصرا من عناصره فيقول لها " هل من الأمواج جئت " ؟

وعندما يراها تخطف من البرق لظاه . ومن الرعد صداه يحسبها من عنصر النار فيقول لها "

هـــــل مـــــن البـــــرق انفصـلت "
أم مـــــــع الـــــــرعد انحـــــدرت

وحينما تعرض عنه وتصغى للرياح يحسبها من عنصر الأثير فيسألها فى حيرة شديدة " هل من الريح ولدت ؟

وحينما يسمعها تبتهل إلى الفجر وتخر أمامه ساجدة .يحسبها منبثقة من النور فيسألها " هل من الفجر انبثقت ؟

وحينما يرى سهادها وهى ترقب مضجع الشمس من بعيد ينادى فى لهفة وغيره " هل من الشمس هبطت " ؟ .

وحينما تتلظى النفس شوقا وحزنا ، والهوى بعيد عنها . يخاطبها فى أسى وحب فأخبرينى ، هل غنا البلبل فى الليل يعيد

ذكـــــــر ماضيـــــك إليـــــك
هـــــل مـــــن الألحـــــان أنت ؟

والواقع أن نعيمه وهو يعرض هذه المشاهد إنما يعرض أمامنا أشواقه إلى معرفة نفسه ، وقد اتبع أسلوب التجريد المشهور فى البلاغة العربية ، وكان فى عرضه لمشاعره أكثر تقديرا لنفسه وامتلاكا لناصية فنه وتحكما فى مشاعره وإمتاعا للعاطفة من أبى ماضى فى " طلاسمه ".

لأنه بعد هذا الحوار الشائق الممتع وضع الحل الحاسم اقضيته . وبعدما تفتحت معه

قلوبنا ، ونشطت عقولنا ، وحلقت أخيلتنا ، وتعبت أحاسيسنا وتاهت توقعاتنا ، جمع الأضواء التى تخيلناها مبعثرة فإذا شعاع مركز حوي كل الألوان ومنه تنطلق النفس هو نور الإله .

أيه نفسى أنت لحن فى قدٍّ رنَّ صداه
وقعتك يدفنان خفى لا أراه
أنت ريح ونسيم ، أنت موج ، أنت بحر
أنت برق ، أنت رعد ، أنت ليل ، أنت فجر
أنت فيض من إله ! (١)

وتتوفر لدى نعيمه القدرة الفنية على تطويع الموضوعات الفلسفية للشعور الفنى فلا نكاد نحس بثقل معانيه أو جفاف أفكاره التى يصبها فى قالب شعرى فالفكر والعاطفة يتعانقان فى أفقه الفنى ، والقلب والعقل يمتزجان بخياله الفسيح وحين يرى نعيمه أن النفس فيض الهى فهو يجدد صدى ماقاله الغزالى متبعا خط ابن سينا والفارابى فى مسألة طبيعة النفس . وكذلك تلمح خيوطا دقيقة من فلسفة سقراط الذى يعتقد أن فى النفس عنصرا إليها ويراها أفلاطون صورة من صور الملا الأعلى .

ويمكن أن يكون نعيمه قد تأثر بالفلسفة المسيحية وهى تأثرت بالفلسفة الاسلامية لأن " المسيحين فى غرب أوروبا وقفوا أولا على آراء الفارابى والغزالى وابن سينا وتأثروا بها ، ثم جاءتهم شروح الفيلسوف القرطبى لأرسطو وكتبه الخاصة فظهر أثرها فى تفكيرهم .

ويمكن القول بأن هناك مرحلتين لتأثير الفلسفة الإسلامية فى الفلسفة المسيحية وهناك طبقتين من أتباع هذه الفلسفة فى أوروبا . ومن الطبقة الأولى " ألبرت الأكبر " .

الذى تتلمذ على الفارابى وإبن سينا وأخذ عنهما كثيرا من الآراء كنظرية الفيض وما تستتبعه من القول بوجود عقل فعال تفيض منه المعانى على النفوس الإنسانية .

ومن الطبقة الثانية " توماس الاكوينى " الذى أخذ عن الفيلسوفين سابقى الذكر وعن الغزالى إلى حد كبير جدا آثار أبى الوليد بن رشد . (٢)

---

(١) همس الجفون : ميخائيل نعيمة .
(٢) أنظر كتاب : فى النفس والعقل د / محمود قاسم ص ١١٩ – ١٢٠ .

والنفس عند الغزالى جوهر أو ذات روحية تفيض من واهب الصور " ولست أتحرى الدقة فى إثبات تأثر نعيمة بهذا أو ذاك . ولن يتيسر ذلك أن أردت .

وإنما قصدت إلى التنويه بالأصول الفلسفية التى يستقى منها نعيمه أفكاره ويصورها فى براعة فنية تحيلها إلى شىء أشبه بالجديد وبخاصة فى عالم الشعر .

وامتدادا لهذه النظرة تتدمج النفس البشرية فى الطبيعة حتى تكونا فى النهاية مخلوقا واحدا هو الطبيعة البشرية يقول .

" الطبيعة جسد واحد يحيا بروح واحدة . وإنا ما سمعناها يوما تقول :

هذا لى . وهذا ليس لى بل كل ما فيها لها وهى لكل ما فيها فلا مالك ولا مملوك "(١) وهو يلتقى مع جبران فى هذا المفهوم ويبالغ جبران ويرى أن العالم يندمج فى نفسه ويرى نعيمه أن الحواس تخدعنا حين تعطينا قتامة الحياة وبرودتها . تخلخل العالم ونهايته . ولكن الحقيقة ليست فى جانب الحواس . فطريق المعرفة الصحيحة كما هو عند جبران النفس " يقول ميخائيل نعيمة من قصيدته الطريق

نحن يابنى عسكر قد تاه قفر سحيق
نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق
فانتشرنا فى جهات القفر نستجلى الأثر
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتى الحجر
وسنبقى نفحص الآثار من هذا وذاك
ريثما ندرك أن الدرب فينا لا هناك (٢)

---

(١) م . نعيمة : زاد المعاد ص ٩٢

(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٤٦

ويتأثر نسيب عريضه بأفلاطون فى تقسيمه للنفس إلى ثلاث نفوس تقوم كل منها بذاتها بحيث تكون إحداها وسيلة للاتصال بالعالم الحسى . وأخرى للاتصال بعالم العقل والثالثة كرباط بين هذين الوجهين وبرغم اقترابه من أفلاطون ودورانه فى فلكه نرى أنه اقترب فى نظرته إلى العلاقة بين الروح والجسد من " عينية ابن سينا " أو بالأحرى قل إنه اغترف من هذه العينية وتشرب آراءه منها ولكن نراه قد عاد إلى أفلاطون فى تصويره للصراع بين قوى النفس حيث بدت عنده كما كانت تبدو عند أفلاطون منقسمة انقساما واضحا بينما يرى ابن سينا أن النفس جوهـــر بسيـــط وأن وجـــوده فـــى البدن لا يشوه طبيعته فيظل واحدا على الرغم من تعدد وظائفه " (١)

ونلاحظ أن نسيبا خلط بين مفهوم النفس والعقل والقلب . والجسد مع أن الفلاسفة فرقوا بين هذه القوى .

فالغزالى يرى أن النفس جوهر أو ذات روحية تفيض من واهب الصور ويرى أن العقل يستخدم فى الدلالة على أحد معان ثلاثة .

فقد يطلق ويراد به العقل الأول وهو أول المخلوقات تبعا لما جاءت به نظرية الفيض أما المعنى الثانى فملخصه :

أن العقل يطلق ويراد به النفس الإنسانية بمعنى أن جوهر النفس عقل وتفكير وأنها من عالم العقل .

والمعنى الثالث : يستخدم فيه لفظ العقل للدلالة على إحدى صفات النفس وهى الإدراك الذى يقابل الإحساس .

ويخلط ابن رشيد بين الروح والنفس فيراها بمعنى واحد ويعد الكلام فى أمر النفس هو الكلام فى أمر الروح .

ويبين الفارابى العلاقة بين الجسم والنفس قائلا :

" إن لك منك غطاء فضلا عن لباسك من البدن . فاجتهد أن ترفع الحجاب وتتجرد . وحينئذ تلحق ، فلا تسأل عما تباشره . فإن أنت فويل لك وإن سلمت فطوبى لك . وأنت فى بدنك

(١) د / محمود قاسم / فى النفس والعقل ص ٧٩ .

كأنك لست فى بدنك . (١)

ويبدو أن نسيبا لم يتح له وإن شئت فقل لم يجهد نفسه فى الاطلاع على المذاهب الفلسفية وإنما صاغ أفكار المتصوفين المتواردة فى البيئات الثقافية شعرا أكثر من التساؤلات التى تعطى لانفعالاته أبعادا فنية قيمة .

وفى كتاب الميزان الجديد " يخصص د / مندور دراسة مستقلة لقصيدة يانفس" لنسيب عريضة ، وقد أولاها عنايته بالشرح وحازت إعجابه لأنها كما قال " تحرك عدة مسائل هامة .. وهذه المسائل كثيرة كما حددها الناقد ولكن لا يهمنى سوى ما يتعلق بالتأمل بسبب ما يمت إليه بصلة ويرى د / مندور أن الجسم سجن للنفس عند نسيب عريضه ويقول إنها فكرة إغريقية قديمة .. (٢) ومن المعروف أن من نادى بهذه الفكرة أفلاطون الذى يرى أن النفس قد قضى عليها أن تهبط إلى العالم الحسى وعليها أن تتطهر حتى تصعد مرة أخرى إلى عالمها الأول والصعود إنما يتيسر لها عن طريق المعرفة الحقة فإذا هى عرفت حقيقتها أخذت تتحرر عن البدن وتصعد شيئا فشيئا حتى مشارف العالم الذى هبطت منه .

يقول نسيب :

الليـــل مـــر علـــى ســـواك	أفمـــا دهاهـــم مـــا دهـــاك
فلـــم التـــمـــرد والعـــراك	مـــا ســـور جسمـــى بالمتيـــن

ومن طبيعة النفس عند نسيب الشك والاضطراب . ولذلك يستحثها أن ترجع إلى صوابها وتبدل شكها باليقين :

يانـفـس مـالـك فـــى اضـــطراب	كـفـــريســـة بـــين الـذئـــاب
هـــلا رجعـــت الـــى الصـــواب	وبـــدلـــت ريبـــك باليقـــين

ومن الملاحظ أن د / مندورفى عرضه للقصيدة لم يُعْنَ بفكرة الشاعر الكلية وفلسفته الخاصة . وتأثراته وتأملاته الروحية ، وإنما عُنِىَ بما قدم للقصيدة بالموسيقى وأثرها فى ابراز الصدق الشعورى ، وعُنى ببيان عمق الصور عند المهجريين عامة وبساطتها من خلال قراءته

(١) السابق ص ١١٣ .

(٢) د / مندور الميزان الجديد ص ٧٦ .

المستقلة للقصيدة و د / منذور لم يبعد بعرضه للقصيدة عن منهجه النقدى الخاص . منهج التذوق وتأمل النصوص فقط .

ونسيب يؤمن مثل جبران ونعيمه بخلود النفس وفناء الجسد . وهم كما أوضحت سابقا يلتقون مع أفلاطون فى نظريته فى النفس .

ولذلك تظل النفس عنده مقيدة فى سجن الهيكل البشرى المادى إلى أن يبلى ، وايليا أبى ماضى يختلف عنهم فهو يرى أن الجسم والروح متحدان يقول نسيب :

يانفس أنت لك الخلود ومصير جسمى للحود
سيعيث عيثك فيه دود فعلام لا تترفقين (١)

ومن قصيدة ابن سينا التى تلاقى نسيب معه فيها :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع
فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

* *

ويتنوع نتاج الشاعر رياض المعلوف شعرا ونثرا . بالعربية وغيرها ومن نتاجه الشعرى الدواوين الآتية " زورق الغياب ، غمائم الخريف ، الأوتار المتقطعة ، خيالات " .

وله بالفرنسية الدواوين الآتية : التلاوين ، غيوم ، حبات رمال والفراشات البيضاء ومن نتاجه النثرى " صور قروية ، ريفيات .

وبعد استقرائى لأغلب نتاجه لم أعثر على قصيدة خاصة بالنفس " وإنما تتسرب نفسه فى أغوار قصائده كما تتشبع الرمال بالمياه فى باطن الأرض .

ومعنى ذلك أنه لم يعالج النفس وهى جزء خارجى عنه ولم يعدها موضوعا مستقلا وإنما تجسمت نفسيته فى وجدانه فغاص بالمشاعر الكاشفة عن حقيقة هذه النفس وقد لاحظت أن

(١) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة .

نفسية رياض المعلوف من النوع الانبساطى فهى من النفوس التى تميل إلى الانطلاق والمتعة . وتعى حقيقة هامة وهى أنها مهما تفلسفت فلن تصل إلى شىء . وبذلك أراح نفسه من أول الطريق .

فالحقيقة كلما عرفنا عنها شيئا غابت أشياء ، وكأنها أفق غائم لانصل إلى نهايته .

وقد جسد الشاعر المعنى السابق فى الأبيات التالية ضمن رسالة طويلة بعث بها إلى :

جميعنا نتفلسف ... والله أدرى وأعرفْ !!
طلاسم الكون سر ... من حله ؟ وتلطفْ !!
يافيلسوفى مهلا ... سر الدنا ليس يعْرفْ
حللت سرا بسر ... إلى متى تتفلسفْ ؟ (١)

وقد توجهت إليه بالسؤال التالى :

ماحقيقة النفس الإنسانية ؟ وما موقفكم من طبيعتها وقواها والصراع داخلها ؟

وكانت الإجابة فى رسالتين :

أما فى الأولى فقال : النفس الإنسانية أو البشرية هى القوة التى لاتقهر غالبا وتكمن فيها صراعات الحياة – وتتلاقى فيها كل قوى وتيارات الأعماق الباطنية وأغوارها .. حين تتفاعل وتتصارع وتتصادم فى داخلنا فينجم عنها الخير والشر . (٢)

وأما فى الثانية : فيبدو أكثر عمقا وتحليلا وواقعية حيث تمتزج فى آرائه حكمة الفيلسوف بموضوعية العالم برؤية الشاعر المتجهة إلى جمال الكون وإسعاد الإنسان .

ويقول فى هذه الرسالة : النفس البشرية هى كنه الحياة السماوية وجوهرها كما الجسم هو كنه الحياة الترابية ! .. وبهذين التوأمين تنسجم الحياة وتجتمع ثم تفترق . ولا شك أن النفس بروحانيتها هى أسمى من الجسد وماديته .

ويكفى النفس شموخا أنها خالدة . لا تموت ولا تفنى .

---

(١) من رسالة أرسلها إلى الشاعر فى ١٩ / ٢ / ١٩٧٨ وهى من الرباعيات التى يحتويها ديوانه : أشواك وبراعم تحت الطبع .
(٢) من رسالة أرسلها إلى الشاعر فى ١٣ / ١٢ / ١٩٧٧ .

ومن الفلاسفة من يعتقد أنها تتقمص شخصا آخرغير الذى خلعته وتركته للتراب كما تخلع الحسناء ثوبها .. لترتدى غيره للدلال والإغراء .

وكما قال الشاعر :

حيـــاة ثـــم بعـــث ثـــم نشـــر حـــديث خـــرافـــه يـا أم عمـــرو

ومنهم من كانت نفوسهم كبيرة بعظائمهم ! وطموحاتهم .

ومنهم من كانت نفوسهم وضيعة بهم وبصغائرهم !! ولله فى خلقه شؤون ! .. لذلك قيل :

وإذا كـــانت النفـــوس كبـــارا تعبـــت فـــى مـــرادها الأجســـام

وقال الشاعر فى قناعة النفس .

والنـفـــس راغبـــة إذا رغبتهـــا وإذا تـــرد إلـــى قليـــل تقنـــع

وقول آخر ونعم ما قال :

لنـا نفوس لنيل المجـد ظـامئـة ولـو تسامـت أسلناهـا على الأسـل
لا ينـــزل المجـــد إلا فـــى منازلنـــا كالنـوم ليـس لـه مـأوى سـوى المقـل

ومن الناس من تكبر نفسه به وبعظمته . ومنهم من تصغر نفسه به ويخمول ذكره تلك هى نسمة الحياة أول ما نتنسمها دامعى العين فى المهد .

وآخر ما نودعه بالغصة والمرارة والدموع .. هنيهة اللحد .

- ٣ -

الصراع بين قوى النفس المختلفة

وكما بحث المهجريون فى طبيعة النفس وهربوا بها إلى عوالم مثالية . لأنهم لم يتصالحوا مع الواقع المعاش فيه . رأيناهم يحسون بالصراع داخل نفوسهم فالجسم سجن لها ، وهى عدو القلب اللدود . والعقل والقلب يتصارعان داخلها ، وهى تتوق إلى الملأ الأعلى للتخلص من هيكل الطين .

وقد عانى جبران من هذا الصراع الخفى بين قوى النفس المختلفة ووقف معذبا فى المسافة بين رغبات جسده الأرضية ، وتحليقات روحه السماوية واعتقاده الأساسى أن الزمان والمكان حالة روحية ، وأن الجسد امتداد للروح أو أن الجسد والروح شىء واحد . فنحن لا نستطيع أن نفصل بين الزهرة وبذرتها فالجسد والروح فى تفاعل دائم وإن الفكر الإنسانى هو الذى يسعى إلى وضع الحواجز والتقنينات يقول من قصيدته " سكوتى إنشاد " .

نظـــرت إلى جسمـــى بمـــرآة خاطـــرى ... فألفيتـــه روحـــا يقـــلصـــــه الفكـــــرُ
فبـــى مـــن برانـــى والـــذى مد فسحـــتى ... وبـــى المـــوت والمثـــوى وبى البعث والنشر
فلـــو لـــم أكـــن حيـــا لما كنـت مائتـا ... ولولا مـــرام النفـــس مارامنـــى القـبر

ولـا سألـت النفـس ما الدهـــر فاعـــل

بحشـــد أمانينـــا . أجابت أنا الدهـــر (١)

وهو فى هذا التخيل للجسد واعتقاد أنه الروح أو النفس فى حالات النشاط الروحى المتقد مع أرسطو فاعتقاده أن " الإنسان لديه جوهر واحد كالتمثال تماما والجسد مادته والنفس صورته ، وفيه تتحد المادة والصورة اتحادا جوهريا وكما أنه لا يمكن فصل هذا التمثال عن الحجر أو الرخام إلا بتحطيم التمثال نفسه كذلك لا يمكن فصل النفس عن البدن إلا بالقضاء على هذا الأخير " وهذا على عكس ما لدى كل من سقراط وأفلاطون " . (٢)

وتبعهما فى معتقدهما بوجـــود النفس أولا وتبعية الجسم له ابن سينا وابن رشد والفارابى .

لكن قد ينتاب جبران صراع بين روحه وجسمه وكثيرا ما يكون فيخاطب نفسه ويواجهها بالحقيقة المرة القاسية يقول لنفسه .

أنت تسيرين نحو الأبد مسرعة . وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع ، وهذا يانفسى منتهى التعاسة ، أنت ترتقين نحو العلا بجاذب السماء وهذا الجسد إلى تحت بجانبية الأرض فلا أنت تعزينه ، ولا هو يهنئك وهذه هى البغضاء (٣) وهو يعاتب نفسه

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ٩٢ .
(٢) د / محمود قاسم:فى النفس والعق " ص ٦٨ .
(٣) محمد عبد المجيد:في عالم الأدب ص ٣٦ .

فى أحوالها التى تنأى بها عن السمو فيقول :

شجبت نفسى سبع مرات :

المرة الأولـــــى : لما حاولت الحصول على الرفعة عن طريق الضعة .

المرة الثانيـــــة : لما عرجت أمام المقعدين .

المرة الثالثـــــة : لما خيرت بين الصعب والهين فاختارت الهين .

والمرة الرابعـــة : لما أخطأت فتعزت بخطإ غيرها .

والمرة الخامسة : لما تجلدت عن ضعف وعزت جلدها الى القوة .

والمرة السادسة : لما لمت أذيالها عن أوحال الحياة .

والمرة السابعة : لما وقفت مرتلة أمام الله وحسبت الترتيل فضيلة فيها .

وهو فى أحيان أخرى يتخذ من نفسه صديقا يشاركه جميع أطوار حياته . يقول : لى من نفسى صديق يعزينى إذا ما اشتدت خطوب الأيام ويؤاسينى عندما تدلهم مصائب الحياة .

ومن لم يكن صديقا لنفسه كان عدو الناس .. ومن لا يرى مؤنسا من ذاته مات قانطا لأن الحياة ستبقى من داخل الإنسان ولن ينجو مما يحيط به . (١)

وقد يتبادر إلى الذهن أن جبران متناقض في موقفه مع نفسه فهو تارة يفصلها عن الجسد وتارة يتخيل الجسد روحا ، وتارة أخرى يعنفها وطورا يصادقها .

كل هذه التحولات فى موقفه مع النفس ان دلت فى ظاهرها على تناقض فهى فى حقيقة الأمر لا تعرف التناقض لأن النفس لها معنيان كما قال الغزالى :

أما الأول : فهو الذى يعبر عن الصفات الحيوانية الشهوانية المذمومة – مثال ذلك أن النفس تستخدم فى هذا المعنى حين تقول ، أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك .

وهو نفس المعنى الذى قصد اليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال " أعدى عدوك نفسك التى بين جبينك " .

---

(١) فى عالم الرؤيا ص ٣٧ .

أما المعنى الثانى : فهو ما تعارف عليه كل من سقراط وأفلاطون وأبى نصر وابن سينا فتطلق النفس فى هذه الحال. ويراد بها الدلالة على حقيقة الإنسان فإن نفس كل شيء حقيقته.

وهى فى رأيه الجوهر الذى يصلح أن يكون محلا للمعقولات وهو من عالم الملكوت وأعتقد أن جبران حين أنب نفسه كان يقصد النفس التى تحمل الصفات المذمومة كما هو واضح فى المعنى الأول . وحين صادقها كان يصادق النفس الجوهرية السامية التى قصدها الغزالى فى المعنى الثانى .

وفى نفس نعيمه يدور صراع رهيب بين المتناقضات المشتملة عليها .. بين الخير والشر ، بين الأرض والسماء . بين النور والظلام . وفي قصيدته " الخير والشر " (١) نلمح هذه الثنائية التى حاول تحطيمها من قبل فى قصيدته " حبل التمنى " (٢) ... فالأمانى تدل على تجدد الرغبة فى شيء بعد شيء . فإذا انقضت هذه الرغبة بلغ الإنسان مرحلة الهدوء المطمئن ، أو السعادة فى رأى أفلوطين . وقد عبر نعيمه عن هذه الفكرة ، دون أن يرينا أنه يقحم الفلسفة على بناء قصيدته وموضوعها " (٣)

وأرانـــى مازلـــت عبـــد الأمانـــــــى ... أتمنـــى لوكنـــت فـــى غـــير حالـــى
غـــير أنـــى لابـــد أبلـــغ يومـــــا ... فيـــــه أمـــسى حـــرا عديم التمنـــى

وتستيقظ الثنائية التى تمنى زوالها قبل ذلك فى قصيدته " الخير والشر(٤) " لتجيء مشكلة قديمة وهى تدرو حول مصدر الشر وكيف يمكن أن يكون الله مصدر الخير والشر معا مع أنه خير كله .

وانتهى نعيمه فى قصيدته إلى أن الخير أخو الشر ولابد من وجودهما معا . فالشيطان يناجى الملاك .

أليـــس أنـــا تـــوأمـــــان استـــــــوى ... ســـر البقـــــا فينـــا وســـــر الهـــلاك
ألـــــم نصـــــغ مـــن جوهـــــر واحـــد ... ان ينســـنـى النـــاس أتنـــسى أخـــــاك

(١) م : نعيمه : همس الجفون ص ٤٦ .
(٢) السابق ص ٢٢ .
(٣) د / حسان عباس ومحمد يوسف نجم : الشعر العربى فى المهجر ص ٥٣ .
(٤) كتب الشاعر قصيدته حبل التمنى سنه ١٩١٩ . وقصيدته الخير والشر سنه ١٩٢٢ .

فأجابه الملاك بعدما عانقه :

وقـــال أى بـــل ألـف أى يا أخـــــى مـــن نارك الحـرى أتانـى النعيـــم
وحلـــق الاثنـــان جنبـــا الـــى جنـــب وضاعـــا بيْـــن وشْى السديـم

وهذا المعتقد يذكرنا بفلسفة جلال الدين الرومى التى ترى أن الشر ضرورى لوجود الخير فالأشياء تبين بأضدادها ، يقول :

العدم والنقص حيثما كانا مرايا جمال الكون
أيـــن تبدو قـــدرة جـــابر العظـــام
إلا فـــى مـــريض رقد محطوم الســـاق ؟
كيـــف يظهـــر الكيميـــائى براعتـــه
إن لم تمـــح البوتقة بعض خسيس المعادن ؟ (١)

* *

وإذا كان نعيمه قد انتهى فى قصيدته السابقة إلى حل يرضى به التمرد على هذا التناقض واقتنع بأن هذا الازدواج مازال مائلا فى كيانه وهو ضرورى للنفس البشرية شاء أم أبى . فالصراع مازال مستمرا وتراه فى قصيدته " العراك " (٢) تشتعل المعارك الطاحنة داخل نفسه . فتمنياته لم تجد . وتسليمه بواقع الثنائية لم يسكن الرياح الغاضبة .

فالشيطان والملاك كل منهما يدعى حقه فى ملكية القلب . وهو ساكن لا يتحرك وهذه المرحلة من الصراع هى المرحلة الثالثة فى تفكير نعيمه .

فالأولى تتمثل فى القلق .. والرؤية الغائمة .

والثانية تتمثل فى الجيشان العاطفى .

والثالثة تتمثل فى الصراع النفسى الحاد . يقول بعد وصف للمعركة الدائرة بين الشيطان والملاك : وإلى اليوم أرانى فى شكوك وارتياك .

لســـت أدرى أرجيـــم فـــى فؤادى أم ملاك .... ؟

(١) راجع : الصوفية فى الإسلام ص ٩٦ – ٩٧ .
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٩٦ – وكتب هذه القصيدة سنه ١٩٢٣ .

وتنشأ معركة أخرى بين الجسد والروح فى قصيدته " أفاق القلب " (١) وهذه المعركة نشأت قبل ذلك بين الشيطان والملاك في نفسه وهى تعطى للقلب قيمته التى ظن نعيمه فترة ما أنها مفقودة . ولجأ إلى الفكر . ويسأم قيود الفكر ويستيقظ شعوره فيكتب هذه القصيدة . وهى ثورة على مقننات الفكر وأسواره وحكاية العمر المسجون فى دائرة الفكر ، وحوار رائع مع القلب اتحدت فيها ذات الشاعر مع شعوره مع موضوعه وهذه سمة فنية تفرد بها نعيمه وتتصل هذه التجربة بتجربته فى قصيدته " التائه " (٢) وقد كتبها فى العام نفسه .

والمعركة تجسدها التجربة العنيفة التى خاضها نعيمه . وأحس أن الجسد بثقله الأرضى قد ضغط على الروح فأحالها ركاما وفتاتا ، فالحب عنده رباط روحى وشعاع من التجاذب الروحانى . بعيد عن رغبات الجسد . الذى أشعل فيه النار ، وهذه الشعلة أحيته وأماتته وسقته من جمرها ندى . فهل هى شعلة الاله أم شعلة الردى .

هكذا وقع نعيمه فى هذا العذاب والصراع الرهيب.

ونشأ هذا الصراع فى نفسه نتيجة لنشأته الدينية وتربيته فى البيئة الشرقية المسيحية والإسلامية بما تحمل من موروثات عقائدية تنمى فى الإنسان الإحساس بقدسية العلاقة بين آدم وحواء.لكن هذا الصراع يتطور عند نعيمه إلى مايشبه الاستسلام إلى رغبات الجسد وأهوائه " والعزوف عن عالم المثالية التى لا وجود لها فى طبيعة البشر حيث نراه يخاطب قلبه بعدما عاد اليه قائلا .

ودمِّـــرْ كـــل أســـــواري وفَـضِّـــح كـــل أســـــراري
وان تعـثـــــر فـــلا تنـــــدم وان تـأمـــــر فـــلا ترحـــــم

والقلب الذى قصده نعيمه هنا يختلف عليه الباحثون . نتيجة لظروف نعيمه الخاصة فبعضهم يرى أن القلب الذى يقصده نعيمه " هو القوة المستمدة من الإيمان وحرارته وهو الخضوع للشعور لا للقياسات . وهو القلب الذى وجده بسكال يحوي من العقول أكثر مما يحوى العقل نفسه . (٣)

(١) م . نعيمة : همس الجفون ص ٥٥ " كتب الشاعر هذه القصيدة سنه ١٩٢٢ .
(٢) م . نعيمة : همس الجفون ص ٥٢ كتب الشاعر هذه القصيدة سنه ١٩٢٢
(٣) أنظر الشعر العربى فى المهجر : احسان عباس ومحمد يوسف نجم ص ٥٨ .

وانس داود يري أن القلب هنا يتسع لأكثر من القوة المستمدة من الإيمان وحرارته إلى قوة مستمدة من تجربة الجسد وحرارته . (١)

وفى رأيى أن تفسير د / أنس داود أقرب إلى واقع الشاعر لأن تصوير الصراع هنا كما يقول الباحثان الآخران على أنه صراع بين المعرفة بالعقل والمعرفة بالقلب فحسب هو عزل للتجربة الحية التى يستقى منها كل شاعر عناصر الصراع والحيوية فى شعره .

وقد كانت حياة "نعيمه" فى تلك الاونة تخوض تجربة حب جسدى بين الاستمتاع والمعاناة وقد اتسعت التجربة الوجدانية لديه إلى أن تعد الجسد أحد أدواتها فى التعرف على الحياة يقول :

أقـــلبى احكـــم ولا تـــرهـــــبْ فمالـــى منـــك مـــن مـهـــــربْ
فأنـــــت اليـــوم سلطـــــانى وأنـــت اليـــــوم ربـــانـــــى
أدرنـــــى كيفمـــــا تـرغـــب

وفى نهاية هذا الطريق الطويل من الصراع . يرى نعيمه أن الجسد مكمل لتجربة الإنسان فى الحياة ، وليس اصطداما مع عالم المثل أو الروح وقد أتم سلسلة المصالحات التى عقدها بين كل المتناقضات فى الحياة داخل النفس الإنسانية وخارجها .

فالذات الإنسانية وجدت فى عالم هى بعض منه وتكاملت بالمتناقضات فالخير والشر والروح والجسد والنور والظلام والنهار والليل ، والمد والجزر ، والحياة والموت جميعا ثنائيات متكاملة يتكامل بها عالم النفس الإنسانية من ناحية ، ويتكامل بها الوجود من ناحية أخرى .

ووقع نسيب فى صراع مع نفسه وقواها الأخرى واحتدمت المعركة عنده بين النفس والجسم والقلب والعقل والروح . فكل قوه لها رغبتها وتطلعاتها ، والرغبات تصطدم وتتناثر شظايا هذا التصادم لترتد فى وجه الشاعر مرة أخرى فتسيل دماء نفسه وتسقط مشاعره فى وسط الساحة شهيدة نشدان الحقيقة المجهولة .

وحين نريد أن نتفهم طبيعة هذا الصراع نلاحظ أن نسيبا متهم نفسه دائما فهو يناصبها العداء – لكنه برغم ذلك لا يطيق فراقها يقول :

---

(١) د / أنس د ود : التجديد فى شعر المهجر ص ١٠٦ .

يانفس رفقا ومهلا فأنت ظعنى ورحلى
طرحت كل رجالى الاك ما زلت حملى (١)

وفى ذلك التناقض يكمن سر شقاء نسيب فهو ينتصر للجسد مع إيمانه بأن النفس فيض إلهى .

ونستطيع أن نعثر على مفتاح كآبته وتشاؤمه فهو يذكرنا فى موقفه مع نفسه بقول المتنبى :

ومن تكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له مامن صداقته بد

أما عن موقف النفس من القلب .. فهى تحاول أن تستهدى به ولكنها تضل فى النهاية فتضطر الى ترك القلب والتضحية به فى سبيل وصولها إلى غايتها حتى لو نزف دما .

ونسيب هنا متعاطف مع القلب كاره للنفس التى حرمته من عواطفه ووجدانياته يقول :

فالقلب يدفعها إلى حيث الهلاك لها معد (٢)

وحين تغدر النفس بالقلب يقول مؤنبا نفسه .

ضحيت قلبى للوصول وهرعت تبغين المثول
فاذا دعيت إلى الدخول فبأى عين تنظرين

وهو يتهمها كذلك بأنها ظلمت القلب وجعلته كالطفل يبسط له يديه وغذته مر الفطام . وجعلت منه شيخا وهو غلام غرير حتى صار القلب كحفار القبور يشكو للنفس والنفس تشتمه حتى صار أعمى تطعنه الشجون وجراحه فياضة بالدماء .

حتى إذا اقترب المراد تطلى رؤاه بالسواد
فيعود أعمى لا يقاد إلا بعكاز الحنين

(١) نسيب عريضه الأرواح الحائرة ص ١٧٨ .
(٢) السابق ص ١١٧ .

ويقول د / مندور :

وهذه حقائق نفسية صادقة برغم ما حولها من ضباب الشعراء وفى طرق أدائها بساطة جميلة وخاصة فى " عكاز الحنين متكئا عليه يتحسس سبيله " .

ويرثى الشاعر قلبه أمام نفسه ويصوره بالذبابة التى تموت فى بيت العنكبوت وهى ترقص على نغم السكوت من الألم ولم ينقذها طنينها وقلبه كذلك مخنوق فى شرك الرجاء وما يظنه شدوا ليس كذلك بل رثاء .

فكذاك فى شرك الرجاء قلبى يلذ له الغناء
ماذاك شدوا بل رثاء يبكى به الأمل الدفين

ويعنف نفسه ويذكرها بالمواجهة الأخيرة حينما تقف أمام منصة القضاء ودماء قلبه على قميصها شهادة أكيدة تدل على ثبوت التهمة .

يانفس إن حُمَّ القضاء ورجعت أنت الى السماء
وعلى قميصك من دما قلبى فماذا تصنعين

* *

وأما عن موقف النفس من العقل فلا يختلف كثيرا عن موقفها من القلب عند نسيب فالنفس بعد مافقدت الأمل فى الاهتداء بالقلب حاولت الاهتداء بالعقل ولكنها ضلت فى النهاية .

والعقل يقذفها إلى شط السلو ولا تعود (١)

وهو يحترم العقل . ويتهم النفس مع الرفق بها والاشفاق عليها .

يا عقل هل من رجوع الى الحمى والتقية ؟

ولكن لا يسمع جوابا .. ولكنه يسمع نشيج نفسه وبكاءها الحار فيهدهدها وهو محاط بشباكها لا يستطيع الفرار منها .

يانفس تبكين مهلا علام تبكى البنيه
صونى دموعك صونى فانها من عيونى
رحماك لا تتركينى فأنت وحدك حسبى (٢)

---

(١) نصيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ١١٧ .
(٢) السابق ص ١٧٨ .

ثم يلمح الشاعر بعد ذلك فوق أوج الذرا بارقا قد سرى. فيما وراء الحدود تلك نار الخلود

وبهذا تستهدى النفس بالنفس بعد أن فقدت الاستهزاء بالقلب والعقل وهذه نهاية غامضة لعل الشاعر يشير بها إلى أن النفس جوهر سام من عالم آخر غير هذا العالم . فلا سبيل للوصول إلى عالمها الأسمى عن طريق وسائل هذا العالم الفانى "القلب والعقل" بل سبيل الوصول هو ترك هذا العالم بكل سبله ووسائله ومعايشة العالم الاخر بلا وسائط فالمعرفة الحقة للنفس لاتتم إلا بالوصول نفسه والقلب والعقل هنا هما طريقا المعرفة المتقابلان فى هذه الحيـاة .

القلب الذى يعتمد على وسائله غير المحددة فى الاستشفاف والشعور والعقل الذى يلتزم بمنطق محدد وقواعد واضحة . (١)

وأما عن موقف النفس من الجسد فان نسيبا يوضحه على النحو التالى :

١ - الجسم سجن للنفس :

ولذلك لا مهادنة معها وهو يتعاطف مع الجسد يقول :

الليـل مـر علـى سـواك	أفـمـا دهـاهـم ما دهـاك
فـلـم التـمـرد والـعـراك	ماسـور جسمـى بالمتيـن

٢ - الجسم فان والنفس خالدة :

وهو فى هذا يلتقى مع جبران ونعيمه .. وفكرة أفلاطون القائلة بخلود النفس وهو مع ذلك يناصر الجسد ويكره النفس مع ايمانه بأنها من نبع الهى . وقد ذكرت من شعره سابقا مايتفق مع هذه الحقيقة .. وربما ترجع مناصرة نسيب للجسد فى عراكه مع النفس الى أن الجسد ضعيف وأن عمره قصير فهى نظرة عطف وشفقه منه على جسده .

٣ - ان النفس تحل بالجسم كارهة له :

لأنها كانت قبل البدن بعهد طويل تتمتع بكل ما تتمتع به العناصر الروحية المجردة ، ومع ذلك فنسيب يصور هزال الجسد وثقل الحمل الذى ناء به تحت وطأة النفس .

(١) د / أنس داود :التجديد فى شعر المهجر ص ٢١٩ .

يانفـــس هل لك فـــى الفصـــــالْ فالجســـــم أعيـــاه الوصـــــالْ
حملتـــــه ثقـــــل الجبـــــال ورذلتـــــــه لا تحفلـــــــين

* *

عطـــش وجـــــوع واشتيـــاقْ أســـف وحـــــزن واحـــــتراقْ
ياويـــــح عيشـــــى هـــل تطـــاقْ نزعـــــات نفـــــس لا تلـــــين

* *

أما عن موقف النفس من الروح : فالشاعر لم يوضح هذا الموقف وقد يكون ذلك راجعا كما أرى الى أن الشاعر يستعمل كلمة الروح مرادفة للنفس فى كثير من الأحيان فالنفس عنده تعنى الروح كما نجد هذه الظاهرة عند جبران أيضا وأعتقد أن هذا الخلط أو المزج بين معنيهما راجع الى المفهوم القديم للنفس فأغلب الفلاسفة يعطون للنفس مفهوما قدسيا يجعلها مرادفة للروح وبخاصة عند أفلاطون وابن رشد وابن سينا .

وقد فرق الغزالى بين النفس والروح فالنفس لديه هو ذلك الجوهر الذى يجمع بين عالمين هما عالم العقل أى العالم الالهى وعالم الحس أى العالم المادى .

أما الروح : فقد يطلق معناها على المعنى السابق نفسه . وقد يراد به ذلك البخار اللطيف الذى ينبع من القلب ليصعد فى العروق إلى المخ ثم يهبط منه مرة أخرى بواسطة العروق فينتشر فى جميع أنحاء الجسم ويكون سببا فى حياتها وحركتها . (١)

يقول من قصيدة يرثى بها أخاه :

هيهـــــات مـاضـــــم الضـــــر يـــح ســـوى قـلـيـــل لايعـــــدُ
لـــم يطـــوجـــو هـــرك الثـــرى فالـــروح لا يطـويـــــه لحـــــدُ
قـــــد ضـــــم قبـــرك مايحـــــد وان نـــفســـك لاتـــحـــــدُ (٢)

وفى قصيدة أخرى يتلفت الفقيد بعد أن استقرت روحه فى عليائها إلى الدنيا ويتساءل متعجبا .

وهـــل كنـــت أسكـــن تـلك الطلـــولا ؟
وفـــى ذلـــك السجـــن سخـــرت روحـــى لجسمـــى وكابـــدت عيشـــا ذليـــلا (٣)

---

(١) د / محمود قاسم / فى النفس والعقل ص ١٠١ .
(٢) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ١١٨ .
(٣) السابق ص ١٢٢ .

وأخيرا نرى أن نسيب عريضه بإشراكه النفس فى القوى الإنسانية المتصارعة اقترب من المتصوفة أو دخل على التحقيق فى دائرة الفلسفة الميتافيزيقية ومذهب القائلين بالطبيعتين : الأرضية والسماوية .

من هذه الثنائية نشأ الزهد المانوى والمسيحى . كما نشأ عند المسلمين فى ثنائية الحياة " الدنيا والآخرة "

وحول الصراع بين الطبيعتين قامت فلسفات أخلاقية متعددة وحيث آمن الناس باحتقار الجسد وجد الزهد الذى مهد لحياة تصوفية عريضه فى الشرق والغرب . (١)

ويحس نسيب بثراء عالم النفس الداخلى وعمقه وهو الأجدر بالمتابعة والتملى وذلك ناشىء من وجدانه الصوفى ، حتى أنه استأثرت بإعجابه قصيدة للشاعر يتوتشف تتضمن هذه الدعوى فترجمها نسيب شعرا موزونا ومن أبياتها التى تقترب من نفسية نسيب

عـــش داخـل النفـس والزمـهـا كصومعـــة واتقـــن حياتـك فيهـــا شأن مـن نجبـــــا
ففـــــى فـــؤادك كـــون لســـت تعرفـــــه يهـــون إدراكـــه لو كنت مطلبـــــــــا(٢)

وبداخل النفس عاش نسيب .. وفى هذا الكون المجهول أطال التأمل . . فكان شاعر الفكر الدقيق الحائر فى أسرار الكون ومغالطات الحياة . (٣)

* *

ولم يخلد رشيد أيوب إلى الراحة النفسية كما ادعى أحد الباحثين حين قال :

" ولقد أبعدته هذه الراحة النفسية عن عالمه النفسى وعن عالم الناس معا " (٤)

ولكنه كان يحس أن نفسه فى صراع دائم معه . هو يريد أن يعايش الناس ، ويعترض على حياتها حيث البكاء والعويل ويأمرها أن تنشد أعذب الأشعار وأطربها يقول من

---

(١) د / إحسان عباس محمد يوسف نجم الشعر العربى فى المهجر ص ٦٥ .
(٢) نسيب عريضه : الأرواح الحائرة ص ٢٥
(٣) السابق ص ١٣ .
(٤) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر .

قصيدته " العراك " :

أيمـــر كـــل العـــمـــر بالـهـــمـــس ... أفمـــا كفـــى نفسى صـدى الأمـــس ؟
فتبيـــت فـــى أحـــلامـــهـــا شبـــحا ... ينســـل مـــن رمسـى الـى رمـــس
واذا سعـــت للرزق فـــى غـــدها ... فكأنهـــا تغد وكمـــا تمســـى
يانفســـى ان العيـــش نغصـــه ... قلـــم بكـــى حظـــى علـــى الطرس (١)

وقد تأثر رشيد بجبران لما كانت لجبران من شهرة قائمة على اتجاه مثالى رومانطيقى أو إن شئت فقل على مذهب جديد ينظر إلى الفرد المتأمل الروحانى نظرة إكبار وتقديس فتأثر رشيد بهذه الدعوة واستراح اليها ، ووافقت هوى عنده ، لأنها كشفت عن حقيقته الرومانطيقية (٢)

ويريد رشيد الالتحام بالناس ويرى أن طريقته فى الحياة مع نفسه تبعده عنهم فيقول :

فالـنـاس يبتعـــدون عـــن رجـــل ... يشكـــو إليـــهم حالـة البـــؤس
هاتـــى مـــن الأشعـــار أطربهـــا ... وتجاهلـــى ما فيـــك مـــن يـــأس

وثورة منه على نفسه وأحلامه يهتف بنداء التغيير .

عودى عن الأحلام فى عالم الأمس وامشى مع الأيام . والخمر فى الكأس ويقع الشاعر فى وهم العالم الجديد يقول :

ناديـــت دمعـــى كـــف عـــن جفنـــى ... جـــرت الريـــاح بمـــا اشتهـــت سفنـــى
ان التـــى قلـــب الزمـــان لـــهـــا ... ظهـــر المجـــن الآن فـــى أمـــن

ويلج عالمه الجديد عبقر ويقول :

ودخلـــت عبـــقـــر وهـــى لـــى وطـــن ... منـهـــا حملـــت بدائـــع الفـــن
وأتيـــت بالاشـــعـــار صـافيـــة ... كالكوثـــر السلسـال فـــى عـــدن

وهنا يواجه الشاعر نفسه التى خيبت ظنه وتقهقرت به إلى عالم الأحلام مرة أخرى وهذا يذكرنا بأسطورة . سيزيف والصخرة الصماء .. فكلما أزاح الصخرة ارتدت إليه حاملة فشله الذريع .. يقول :

(١) رشيد أيوب : هى الدنيا .
(٢) أنظر الشعر العربى فى المهجر ص ٢٣٠ .

وظننت أنى عدت منتصرا ... فاذا بنفسى خيبت ظنى
عادت الى الأحلام ... والهمس فى أذنى
ومشت مع الأيام ... والدمع فى جفنى

وارتد الشاعر مرة أخرى إلى أحلامه ، ولم تجد ثورته ولا تمرده على نفسه فهى المتحكمة فى مصيره ومستقره ومبدئه ومعاده .

وساقه هذا الشعور بتحكم نفسه فيه إلى حالة تشبه اللامبالاة وغيبة عن الوعى فهرب إلى الخمر لتشعشع من خلال سكرها العميق أحلامه الوريقة يقول :

يانفس قد قل عندى زيت مصباحى ... قومى اشربى من كميت الراح وارتاحى
دنيا تساوى بها النشوان والصاحى ... لا خير فى عيشها لولا أمانيها

وهو لم يستطع أن يواجه الحياة بصلابة الفيلسوف حيث " فقد لذة الحياة ومرح الشباب والأمل فى نفسه إلا بقايا من الأمانى الحائرة التى تراوده كومضات الذبالة تلمع ثم تخبو فتموت . (١)

ولذلك لم يفهم نفسه ولا طبيعتها ولا الغرض الذى من أجله وجد ، وعبر عن هذه الحقيقة فى قصيدته .. ولى ما عرفناه .. وهى ترجمة ذاتية لنفسه حيث يبث مظاهر الكون أسرار نفسه فى صورة مباشرة .

إذا ما جنه ليل ... ترامت فيه نجواه
فيرعى النجم إذ يبدو ... كأن النجم مغناه
تراه إن سرى برق ... تمنى مطاياه
وإن اصغى لصوت النا ... ى أشجاه وأبكاه
إذا اعطيته شيئا ... أبت جدواك كفاه
وفى الدنيا لأهليها ... حطام ما تمنى (٢)

(١) د / خفاجى – قصة الأدب المهجرى جـ٢ ط ٢ ص ٣٤٠ .
(٢) رشيد أيوب – أغانى الدرويش ص ٢٩ .

وملامحه باهته لا يدرى كنهها هل الحب دليله ؟ أم الشكوى نصيبه ؟ أم الزهد قسمته ؟ أم الجنون والغيبة عن الوعى ؟ يقول :

ألا يـــاســـاكـنـــــى الـدنـيـــــــا تعالـــــوا استنطقـــوا فـــــاهُ (١)
سلـــــوه ربمـــــا المسكيـــــــــــ ن ســـــــوء الحـــظ أقصـــــــاهُ
فقالـــــوا انـــــه صـــــــب وفـــــرط الحـــــــب أضنـــــــاه
وقالـــــوا شـــاعر يشكـــــــو فمـــــا تجديـــــه شكـــــواه
وقالـــــوا زاهـــــد لمـــــا رأوه عـــاف دنيـــــــــاه
ومنـهـــــم قـــال درويـــــش غـــريـــب ضـــاع مـــــأواه
ســـألنـــاه بـــلا جـــــــدوى وولـــــى ما عرفـــنـــــاه

وعن الصراع النفسى يقول رياض المعلوف .. وراء النفس ماوراءها من أحلام وكبت جنسى ، وعقدة أوديب . ومركبات نقص وهى العقل الباطن الذى يسير العقل الواعى والجسم معا . ويحكم على تصرفات المرء من البواطن إلى الظواهر .

فالعالم النفسانى " فرويد " يعزو كل شىء إلى الرغبة الجنسية .. بينما تلميذه "أدلر " يخالفه الرأى . ويعتقد أن الإنسان عنده رغبة الطموح إلى الإنطلاق والاندفاع والرقى فى الحياة . ومن ذلك تتكون الشخصية البشرية وتتبلور بها أفكارنا وأحلامنا وعللنا الجسدية والنفسية .

والمرء مفطور على البحث عن الارتقاء والتفوق .. لذلك قيل : هذا رجل عنده جنون العظمة . والحقيقة أن الناس جميعهم من مجانين العظمة ! وبعضهم يقول : إن العبقرية وليدة مركبات النقص والله أعلم .

أما التحليل النفسى فهو مبنى على أسرار هذه الرغبة الجنسية أو الارتقائية المكبوتة منذ الطفولة .

وأطباء النفس يشفون اليوم النفوس المعقدة ، ويحلون عقدها . ويشفون بذلك أمراض الجسم المتأثر بها نفسانيا .. وعرفت أحد علماء النفس الأوروبيين . فأخبرنى أنه تقدم إليه فى عيادته أحد عازفى البيانو العالميين وأعلمه أنه يعزف كل قطع الموسيقيين الشهيرين إلا إحدى المعزوفات الكلاسيكية . فيصعب عليه هذه وحدها عزفها بإتقان فلازم هذا الموسيقى الطبيب النفسى مدة قصيرة من الزمن بعدها أخذ الموسيقار يعزف تلك القطعة بمهارة ما بعدها مهارة !

---

(١) فى كلمة " تعالوا " خطأ لغوى لأن صحتها " تعالوا " بفتح اللام . والشاعر الجيد هو الذى لايضطره الوزن الشعرى الى الوقوع فى مثل هذا الخطأ أو غيره .

حتى أنه دعا طبيبه هذا – إلى حفلة عزف فيها المقطوعة تلك . فهنأه عليها معجبا . والغريب فى الأمر أن العالم النفسانى هذا لم يكن موسيقيا إطلاقا .. ولم يكن يعرف شيئا عن تلك القطعة الموسيقية .. لكن بتأثيره الفكرى والنفسى عليه .. وضع فيه الثقة النفسية التى تغلبت على فشله بالنجاح . (١) (زحلة ١٩٠ ك٢ " يناير " ١٩٧٨ رياض المعلوف .)

كلمة أخيرة :

بعد هذا التنقيب فى نفوس الهجريين أركز علي الحقائق الآتية :

أولا : أنهم لم يبحثوا فى النفس باعتبارها حقلا للعقد ومركبات النقص والأمراض وهى النفس التى وجه إليها علماء النفس كل جهودهم ، وعالجوا أمراضها وعقدها . وإنما بحثوا فى النفس بمعناها الفلسفى كما هى عند أفلاطون وابن سينا ، والغزالى ، وتوماس الأكوينى .

ثانيا : ابتعدوا فى بحثهم فى النفس عن مرحلة " البراجماتزم " أى المذهب العملى الذى رفع لواءه فى أمريكا وليم جيمز وجون ديوى . وهولا يعنى بمعرفة حقيقة الشىء ولا الإلمام بوظائفه وإنما عنى بمعرفة طرائق الانتفاع به . وظلوا في مرحلة الأيديالزم " ومرحلة " الريالزم " والأولى تعنى بالبحث المثالى ، والثانية تعنى بالبحث الواقعى ما عدا أبى ماضى الذى ألمح إلى شىء من ذلك فى خلاله قصائده .

ثالثا : كان هروبهم النفسى ضعفا بشريا . أملته عليهم ظروفهم القاسية ، والإحساس الرومانتيكى الذى سيطر على مشاعرهم نتيجة لتأثير الرومانتيكية الأوروبية فى نفوسهم .

رابعا : عنف بعضهم نفسه بصورة قاسية فكان أشبه بالمتصوفين ، وبعضهم مناها بالخلود ورفعها الى درجة التقديس مثل جبران ، وعدها البعض شعلة ربانية وفيضا إلهياً مثل نعيمه .

خامسا : آمن أغلبهم بالثنائية إيمانا فرضته عليهم طبيعة النفس . وتمنوا زوال هذه الثنائية ولكن لم يتحقق لهم ذلك ، وحاولوا تحطيمها بالهروب إلى الغاب أو بعدم التمنى أو

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٩ من يناير سنه ١٩٧٨ .

بزوال المتناقضات . ولكن لم يتيسر لهم ذلك .

سادساً : نظر بعضهم إلى النفس نظرة تحليلية واقعية نأت بها عن مفهومها الفلسفى القديم مثل رياض المعلوف .

سابعاً : خلط أغلبهم بين معانى النفس والقلب والروح . وآمن البعض بانفصال النفس عن الجسد والاخرون باتحادها معه ومنهم من آمن بأن الجسد سجن للنفس وأحيانا تأثروا بفكرة ابن سينا عن العلاقة بين النفس والجسد فى فلسفته أو فى قصيدته المشهورة فى النفس .